التناص فى شعر عماد قطرى

قراءة فى ديوان

"عشر نساء يجئن خلف العاصفة"

إبداع

عماد قطرى

تتمحور هذه القراءة حول التناصIntertextuality فى شعر عماد قطرى، وبالتحديد فى ديوانه الأخير:عشر نساء يجئن خلف العاصفة(2009م)؛ لعدة أسباب لعل أهمها أن التناص أضحى ظاهرة ألسنية نقدية شائعة على ساحة النقد الأدبى[1]، كما أنه من أهم العناصر المؤثرة فى جوهر الشعر،ويبرهن على أنه لا انفصام بين التراث والمعاصرة؛حيث تبدو مهارة الشاعر المعاصر في تناصه من خلال توظيف النص الموروث لخدمة النص المعاصر، ومن يطلع على هذا الديوان يجد هذا التوظيف جليًا؛ مما يثبت أصالة شاعرنا ففى شعره استلهام واضح للموروث.

وصاحب هذا الديوان هو عماد على قطرى، شاعر مصرى ولد بشبراويش فى مركز أجا بمحافظة الدقهلية، وصدر له مسرحية شعرية بعنوان المحاكمة سنة 1999م، وخمسة دواوين هى: عذرًا سراييفوسنة 1995م، ويا نيل سنة1998م، وما بيننا سنة2003م، والعصافير سنة 2007م، والديوان محل هذه الدراسة سنة2009م. وعماد عضو نشط فى مجموعة من الروابط والجمعيات الفكرية والأدبية، مثل: اتحاد كتاب مصر، ورابطة النورس للأدباء العرب، ورابطة الأدب الإسلامى العالمية.

وقد نشرت أعمال شاعرنا الإبداعية المتميزة فيما يقرب من خمس عشرة صحيفة وجريدة ما بين المصرية و العربية، مثل:أخبار الأدب والشعب والشعر والبيان وعكاظ والرياض والجزيرة والأدب

الإسلامى والنورس، وقد جذب شعره أنظار بعض النقاد فتناولوه بالتحليل النقدى المنهجى.

ومن ثم يمكن عد شاعرنا من أبرز شعراء العربية المعاصرين؛ فشعره جيد غزير ينشغل بهموم الوطن والأمة؛ فقد عالج كثيرًا من قضايا الوطن الصغير (مصر) والوطن الكبير (الوطن العربي) والأمة الإسلامية، معالجة تنم على وعى فكرى ناضج وحس شعرى مرهف وتمكن من الأدوات الإبداعية، وقد سيطر على شعر عماد قطرى روح مليئة بالسخرية من الأوضاع المزرية والثورة والحزنا علي ما حل بالوطن والأمة.

وتسعى القراءة الراهنة إلى تعرف المواضع التى استلهم فيها شاعرنا التراث ومصادر الثقافة العربية الإسلامية وتناص معها؛من أجل توظيفها لتعميق الدلالة الشعرية تلك المرتبطة ارتباطا وثيقا بالوطن والأمة.

مفهوم التناص:

بداية لابد من تقرير أن مصطلح التناص من المصطلحات الحديثة والمعاصرة، بغض النظر عن تشابه بعض ملامحه مع بعض المصطلحات فى التراث العربى كالتضمين و الاقتباس والسرقة وغيرها، وهو ظاهرة تتمثل في حدوث علاقة معينة بين نصين أو مجموعة من النصوص مما يؤثر في طريقة النص المتناص مع نص أو نصوص أقدم.[2]

وهذا التداخل بين النصن الأول والثانى لا يلغي صوت اللاحق لحساب صوت السابق المتناص معه،فلكل صوت من هذه الأصوات سماته وخصوصياته؛ومن ثم عرِّف التناص على أنه اعتماد نص من النصوص على غيره من الشعرية أو النثرية القديمة المعاصرة عربية أو غير عربية مكتوبة أو شفهية،مع وجود صيغة من الصيغ العلائقية والبنيوية والتركيبية والتشكيلية والأسلوبية بين النصين، وقد يكون ذلك عن طريق الاقتباس أو التضمين أو الإشارة، وغير ذلك من مقروء الأديب الثقافى بحيث تمتزج بالنص الأصلى وتذوب فيه ليتشكل نص جديد واحد متكامل.[3]

و يمكن القول: إن التناص هو المسئول عن توضيح تطور أنماط النصوص بوصفها أنواعًا من النصوص ذات خصائص نمطية أنموذجية، وقد يكون هذا الاعتماد كبيرًا وقد يكون صغيرًا.[4]

ويعد ميخائيل باختين من أوائل من تعرضوا لمفهوم التناص فى النقد الحديث، وذلك فى كتابه: فلسفة اللغة، غير أنه استعمل مصطلح الحوارية Dialogism للدلالة عليه[5]، كما تعد جوليا كريسطيفا أول من استخدم مصطلح التناص فى بعض مقالاتها النقدية وعرفته بأنه التفاعل النصى في نص بعينه؛حيث يتشكل النص من بنيات فسيفسائية من الاستشهادات،كما أنه امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى؛ أى أن النص عندها فضاء تتقاطع فيه نصوص متعددة، غير أن جوليا كريسطيفا اقترحت فى مواضع أخرى من دراساتها مصطلحًا بديلاً عن التناص الذى قد يفهم علي أنه دراسة للمصادر، وهذا المصطلح هو التحويل.[6]

وقد تعددت تعريفات التناص بعد جوليا كريسطيفا، فهو – على سبيل المثال– عند ريفاتير نسيج عنكبوتى من الوظائف التى تؤلف وتنظم العلاقات بين النص والمتناص.[7] والتناص عند جيرار جينيت هو تلك العلاقة التى تقوم بين نص وآخر يحضران معًا عن طريق الاستشهاد والسرقة والتلميح أو الإيحاء.[8]

وتتميز النصوص الشعرية بتوسيع البدلية بحيث يتم فيها إعادة تنظيم الاستراتيجيات من أجل تنفيذ الخطط والمحتوىعلى سطح النص، بمعنى أن تضام النص الشعرى يحدث جزئيًا من خلال المقابلة بتضام أنواع من النصوص وبحسب الأعراف الخاصة بنوع النص.[9]

وتبرز ظاهرة التناص بوضوح في كثير من شعر عماد قطرى؛ حيث يستلهم نصوصًا متنوعة من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والنثر العربى والشعر العربى والتراث الشعبى؛ ومن ثم يمكن القول: إنه استند إلى الموروث العربي عند إعادة تشكيل بناء خطابه الشعرى مجسدًا تمكنه من ناصية معطيات التراث العربى الذى يضرب بجذوره فى أعماق المتلقي العربى بما يخدم الأبعاد الفنية والنفسية لاستلهام التراث العربى.

مجالات التناص فى ديوان عماد قطرى:

يلاحظ أن مجالات التناص فى ديوان عشر نساء، متعددة، وأنه استخدم ثلاث تقنيات فنية موظفًا إياها لخدمة رؤيته الشعرية وهى:

1) استخدام النص بلفظه أو بإجراء بتعديل طفيف في العبارة،مع بروز الرؤية المعاصرة للشاعر.

2) إجراء تحوير مقصود على النص بحيث يدل على ضد مدلوله التراثي.

3) استيحاء روح النص والإشارة إليه دون التصريح به.

التناص مع القرآن الكريم:

أستلهم عماد قطرى بعض آيات النص القرآني الكريم وأجرى معه حوارًا ممتعًا في شعره، ومن ذلك:

- تناصه مع قول الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[10]

حيث قال عماد:

إنى هنا ..

فاطرد قليلاً عن عيونك ظلها

شرد به هذا النعاس

إنى هنا ..

وإذا كانت المطالبة بالتشريد فى الآية الكريمة بالخائنين، فإنها عند عماد بالتشريد بالظل وتبديده.

- وتناص مع بعض المواقف القصصية الواردة فى القرأن الكرم عن سيدنا يوسف، عليه السلام، مثل قول الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾[11]

قال عماد:

باعت جميع القضايا
بكف غليظ على وجهها
يوم قدوا القميص
فى المساء
حدثت جمعنا عن طريق النضال
عن هموم الرجال وبعض العيال
ببعض الخطب
وقال فى قصيدة يا سيدى الشعب ص73
أنجوع فى مصر الحبيبة
والمياه وطيننا
ورجالنا.. ماذا يفيد الصبر
وعزيز مصر وحزبه
قدوا قميص الشعب من قُبُل ومن دُبُر
بل وفى عز النهار
هم يصنعون دعاية
بل يزرعون حكاية
عن قوة.. محض اجترار
وهم الكبار وثلة ودعاية
لا تلتفت نحو الدعاية بانبهار
يا سيدى ذهب العزيز مزيف

وعصاه سوس غالها

حق انهيار

وهنا يوظف عماد شخصية العزيز بوصفها شفرة أو رمزًا ليجسد رؤيته الواضحة وموقفه الجلى من الساسة والسلطة.

- وتناص مع قول الله تعالى على لسان إخوة يوسف، عليه السلام: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾(12)

قال عماد فى قصيدة يا سيدى الشعب: ص70

يا سيدى إردب مصر مطفف

والكيل مستوف إذا باعوا الصغار

والغاز يمضى للعدا بخسًا

أو يجدى انتظار

والكيل عند عماد مختلف عن الكيل المشارإليه فى الآية الكريمة، فهو كيل من الهوان والذل والصغار، وفى هذا خدمة وتوظيف لرؤية الشاعر المعاصر.

- وتناص مع قول الله تعالى عن السيدة مريم العذراء، عليها السلام ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(13)

فقد قال عماد:

أختها التاسعة

دمعة لؤلؤة

حصنت فرجها

رددت وردها فى شجن

واحتمت بالوطن

التناص مع الحديث النبوى الشريف:

يلاحظ قلة تأثر شاعرنا بنصوص الحديث النبوى الشريف؛ فلم أعثر فى ديوانه على تناص مع الحديث إلا مع قول النبى – صلى الله عليه وسلم– الآن حمى الوطيس؛ حيث قال عماد:ص 75

إنى سأحمل رايتى..

كفنى إذا حمى الوطيس

وهنا يقتبس لفظ النبى الخاص به متحدًيا أن تقع الثورة والحرب، فعندها سيحمل كفنه بين يديه.

التناص مع الشعر العربى القديم:

تناص عماد قطرى مع قول المتنبى:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميت إيلامُ

فقال بقصيدة بعض أحوال النجوم، فى مختتم ديوانه ص152

نجمة تنجمك

صوتها يرعبك

سوطها يلهبك

من يهن..

لا تقل.. ما لجرح ألم

جرحنا- يا بلادى- دم نازف

ما التأم

من يهن.. سوف يبقى أسير العدم

وهنا يرفض عماد ألا يكون لجرح الإهانة ألم، كما يرفض أن يتعود الشعب المصرى العربى ألم الإهانة فما يزال الجرح لم يلتئم.

التناص مع النثر العربى:

تناص عماد مع بعض الأمثال العربية: نحوالمثل: ما حك جلَدك مثلُ ظفرك

فقد قال عماد مخاطبًا الوطن الحبيب مصرص86:

ما حك الجلدَ سوى ظفرك

وكأنه يدعوإلى إصلاح البيت من الداخل لتصحيح أوضاع الوطن.

- ويتناص مع المثل العربى:إن البغاث بأرضنا تستنثر، فيقول مخاطبًا الأديب على الغريب ص129:

يا صوت حب من هديل القبرات

إليك عن قصص الجنود المحزنة

هم يرحلون فلا تكن متألمًا

تفنى العناكب والخنافس

والبغاء لتوتة هيفاء ترمى ظلها..

فوق الصبايا الفاتنة

لن يستمر بغاثهم فى أرضنا

الصقر آت بالضياء وثورة تفنى المياه الآسنة

وتناص عماد هنا نقيض المثل تمامًا.

- وتناص شاعرنا مع قول عمر بن الخطاب – رضى الله عنه– إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة؛حيث قال عماد موظفًا هذا القول فى سخريته الشعرية المعهودة ص93:

(يصرخ البيه ذو الصوت ذاك العنيف)

قف هنا وانتظر سوف تلقى السماء الذهب

وهنا يعكس عماد ساخرًا، مقولة عمر، رضى الله عنه.

التناص مع التراث الشعبى:

يلاحظ كثرة تناص شاعرنا مع عناصر من التراث الشعبى، وكأنه ينغمس فى هذا الموروث؛ ليدل على شدة تعلقه بالشعب الذى أطلق عليه لقب السيد أو سيدى الشعب، على حد تعبير عماد قطرى، ومن هذه العناصر:

- دق الطبل فى مواكب الفرح وما يستدعيه من نصوص غنائية وإنشادية؛ حيث قال عماد فى قصيدة تهنئة إلى شعب مصر بفوز المنتخب المصرى بكأس الأمم الأفريقية:

سأمشى فى مواكبكم

أدق الطبل والإيقاع والطار

والشاعر هنا يوظف هذا التناص بأسلوب ملىء بالسخرية والتهكم والمفارقة؛ إذ سيسير فى مواكب الفرحة بفوز الفريق الوطنى لكرة القدم داقّاً الطبل وكأنه يتناسى هموم المواطن المصرى البسيط بدءًا من همه بتوفير رغيف الخبز النظيف ومرورًا بالتزاحم فى وسائل المواصلات ثم غلاء الأسعار التى صارت كالنار؛ومن ثم نجده يردد ساخرًا:

سأنسى فى مواكبكم رغيف الخبز محشوًّا

بأعقاب ومسمار

سأنسى قصة الطابور والباصات والأسعار كالنار

ويستمر فى هذا الأسلوب زاعمًا أنه سينسى – والحق أنه لن ينسى– الهموم الكبرى المستقرة فى ضمير المواطن المصرى تلك الهموم القومية والإسلامية؛فيهتف:

سأنسى قصة الإخوان فى غزة

وأحضن فى مساءات الهوى عزة

.....

سأنسى حجم مأساة

وأنسى ذل إخوان وقلب العز من جزه؟

.....

سأرقص من عميق القلب أخطو فى فخار

نحو ميدان العروبة

- الرقص بأعواد من الحطب ورقصة الدبكة وما يصاحبهما من نصوص إنشادية وغنائية:

وشاعرنا يستمر فى القصيدة نفسها فى السير على هذا المنوال من التهكم و السخرية فى توظيف هذا الملمح الشعبى المتناص معه مستغلاً رمز الخيول العربية الدال على الكرامة والعزة التى كادت تضيع من الأمة بسبب الإهانات و الخيانات والإهمال والتفريط والظلم؛حيث يقول:

سأرقص مثل ديك مستبد

وسط آلاف الفراخ

سأفرح.. أرقص التحطيب وسط خيولنا

هذى التى تمضى بذل تحت أطنان السباخ

.....

سأنسى نقطة التفتيش تصرخ

قف..

ومخبرهم..يراقبنى.. يناظرنى

.....

سأنسى كل ما كانا

سأنسى رسم حارتنا

وشارعنا.. وعنوانا

سأنسى شكل من خانا

سأنسى رسم إخوتنا

بقاع البحر أمواتا..

سأنسى موجةً ثارت وشطآنا

سأنسى ثلة خانت

وباعت أرضنا بخسًا وعدوانا

سأنسى سجن أحرار

ومذبحة.. وسجانا

سأنسى ماء عزتنا

يداس بألف منطقة

وأنسى دمع صحبتنا وأشجانا

ويسيطر على عماد قطرى الأسلوب الساخر نفسه فى التناص مع رقصة الدبكة وما يصاحبها من نصوص إنشادية وغنائية فى يومى الحنة والعرس؛ حيث قال فى قصيدة صباح الخير يا غزة:

بأفراحى سأطلق ألف أغرودة

وأرقص دبكة نشوى

بيوم العرس والحنة

التناص مع ألفاظ التحية:

أقام عماد قطرى تناصًّا مع مجموعة من ألفاظ التحية و الترحاب السائرة على ألسنة الشعب المصرى والعربى، مثل:

- صباح الخير، وصباح النور؛ حيث قال:

صباح الخير والأمجاد يا غزة

صباح النور والأحلام والعزة

صباحك سوف يبقى

رغم كل القصف أندى

وهنا أضاف إلى هذه التحية ملامح تبين أحلام الأمة و غزها ومجدها.

- أهلاً ،وأهلاً وسهلاً؛ حيث قال وهو يحيى المساعيد بمدينة العريش فى شمال سيناء بمصر:

أيا نجمة السهد أهلا..

ومرحى..

لنا البحر والموج والنخل

وقد ختم قصيدة المساعيد بقوله المتناص مع التحية الترحابية الشهيرة:أهلاً وسهلاً :

فطبتم وأهلاً وسهلاً بشمس الوفاء

- حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً :والشاعر يتناص مع هذه التحية مع تحويرها فى قوله:

أيا خيل ضوء

حللتم كرامًا..

نزلتم سهول الفؤاد الموشى

بصدق انتماء

- النشيد الوطنى المصرى؛تناص عماد مع النشيد الوطنى المصرى حيث قال فى قصيدة دماء الشهيد:

هما السارية..

نشيد الوطن

(بلادى.. بلادى.. بلادى)

غير أن الشاعر يوظف إيقاع هذا النشيد ليجسد الواقع المعاصر المرير مستبدلاً تركيب دمائى بتركيب بلادى:

وها ليوم عدنا

فماذا وجدنا

سوى سيل وهن وعرى ونوم طويل

(دمائى.. دمائى.. دمائى)

فمن ذا يريد البلاد استحلت فنائى؟

دمائى..

وهل ضاع كل الذين ارتقوا للسماء؟

دمائى..

فمن ذا يعيد البناء

ويلقى الوساخات تحت الحذاء؟

دمائى.. دمائى.. دمائى..

لك الحب يحمى لوائى

- أغنية يا بيوت السويس، للمطرب محمد حمام؛حيث ألمح إليها عماد قطرى متناصًّا معها فقال:

وغنى حمام البيوت.. السويس

وهنا نتذكر المقطع الآتى من تلك الأغنية:

يا بيوت السويس يا بيوتنـا أنتى

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى

- التناص مع أغنية فيروز :أعطنى الناى وغنى

حيث قال عماد:

(أعطنى الناى).. لا.. لا تغنى

فإنا سئمنا الغناء

ليس وقت التفاهات تسمو

ويعلو الغباء

(أعطنى الناى).. لا.. لا تغنى

أطلقى النار سيلاً وردى العزاء

لا تقولى لهم غير هبى.. وهبوا

ولبوا النداء

ليس هذا زمان الغناء

يقتفى الغاصبون الخطى

يقتلون الضياء

لا تغنى.. ليس هذا طريق الحداء

والعصافير حيرى

وكل الطيور انحنت فى المساء

ليس هذا زمان الغناء

وهنا يرفض الشاعر الاكتفاء بنداء الغناء والدعوة إليه ويطالب بالدعوة إلى تصحيح الأوضاع داخل الوطن؛فليس هذا زمن الغناء.

- التناص مع أغنية سعد الصغير :العنب

قال عماد متناصًّا مع هذه الأغنية منتقدًا هذا الإسفاف فى الغناء ص 106:

من زمان نسينا الغناء المصفى

وتهنا بشط الغباوات

نرضى نشازًا وقبحًا من المطرب

يا له من دعى غبى

يا عنب..

" العنب.. العنب.. العنب.. "

وهذا التناص يؤكد رؤية الشاعر الناقدة البصيرة التى تدعو إلى البعد عن مثل هذه الأغنيات وهذا النوع من الإسفاف.

الهوامـــش

1- انظـر: شـربل داغـر: التنـاص سـبيلاً إلـى دراسـة الـنص الشـعرى، فصـول، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، مـج16، ع1، 1997م، ص12.

2- انظـر :إلهـام أباغزالـة وعلـى خليـل حمـد:مـدخل إلـى علـم لغـة النص؛تطبيقات لنظريـة روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1999م، ص 35.؛ومن ثم فالتنـاص يخـتص بـالتعبير عـن تبعيـة الـنص لنصـوص أخـرى أو تداخلـه معهـا.سـعيد بحيـرى:علـم لغـة النص؛المفـاهيم والاتجاهـات، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، ط1، 1997م، ص146.

3- انظر :محمود جابر عباس:استراتيجية التناص فى الخطاب الشعرى العربـى الحـديث، علامـات فـى النقـد، مـج12، ج46، نـادى جـدة الأدبـى، شـوال1423هـ، ص266.أحمـد الزعبـى:التنـاص نظريًـا وتطبيقيًا، مؤسسة عمون، الأردن، ط2، 2000م، ص11، 12.

4- انظر :إلهام أباغزالة وعلى خليل حمد:نفسه، ص 35.صلاح الدين صـالح حسـنين:الدلالـة والنحـو، ط1، مكتبـة الآداب، القـاهرة، د.ت، ص232.

5- انظر :محمد بنيس:الشعر العربى الحديث؛بنياته وإبدالاتها، ج3 الشعر المعاصـــر، دار توبقـــال، المغـــرب، ط1، 1990م، ص183-

185.تزفيتان تودوروف باختين:المبدأ الحوارى، ترجمة:فخرى صالح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يونيو 1996م، ص143-144.

6-انظر: فاطمة قنديل: التناص فى شعر السبعينيات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999م، ص29.عمر أوكان:مدخل لدراسة النص والسلطة، أفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، ط1، 1991م، ص60.

7-انظر:أنور المرتجى: سيميائية النص الأدبى، أفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، 1987، ص47.

8-اتظر:فاطمة قنديل: نفسه، ص93-95.

9-انظر: إلهام أباغزالة وعلى خليل حمد:نفسه، ص236، 237.

10- الأنفال:57.

11- يوسف:25.

12- يوسف:88.

13- الأنبياء:91.